ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

العمارة العلمية في مغرب العصر الوسيط
الخزانة المرينية العتيقة في جامع تازة نموذجًا

عبد السلام انويكُة

أستاذ باحث في التاريخ المعاصر

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين

تازة – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تُعَدّ العمارة العلمية من الوجهات الحافلة بالعبر، والتي من المفيد توجه اهتمام الدارسين إليها. ولعل البحث في بنية جميع ما يمكن ترتيبه ضمن المعالم المادية، لمن شأنه الإسهام في تجاوز تاريخ ما يزال سجين الحدث. وقد كانت الخزانات العتيقة وما تزال من حيث، إحداثها ومحتوياتها والعناية بها، بمثابة عناوين لمدى نفوذ تجارب سياسية تعاقبت على حكم المغرب. ومؤشرا لقياس درجة الاستقرار والازدهار. كذا ما كان عليه الأمر من رمزية تنافسية مادية، في مجالي البناء والتشييد ليس فقط خلال العصر الوسيط، بل على امتداد فترات لاحقة. وعليه فالخزانات العلمية ذات الامتداد في زمن المغرب، لا تخرج عن كونها شواهد، لمتغيرات طبعت بنية المجتمع والثقافة المغربية عبر التاريخ. بناء على ما يمكن التقاطه من فعل وتفاعل علمي وروحي وثقافي، كانت عليه المدن كدوائر تدافعات منذ تأسيس الدولة المغربية (الأدارسة). ويبقى من شأن توجيه العناية لمثل هذه العلامات التراثية، من خلال البحث في النصوص، ليس فقط كشف سياقات فعل البحث والباحثين، إنما أساسًا طبيعة العلاقات التي كانت تصل العلماء بالسلطة وبالمجتمع. والباحث في تاريخ العمارة العلمية لمدن مغرب العصر الوسيط، كما حال تازة (مدينة مغربية منتصبة على احدى شرفات جبال الاطلس المتوسط)، تحديدًا من هذه الأخيرة خزانتها العلمية المرينية، قد يجد نفسه أمام صعاب موضوعية، أساسًا منها شح الكائن من المادة المصدرية والمرجعية، وحتى في بحوث ودراسات متأخرة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٠ أكتوبر ٢٠١٤

تاريخ قبول النشر: ١٥ يناير ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

العمران العلمي، دولة المرينيين، جامع تازة، النصوص الأثرية، المخطوطات

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047292

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد السلام انويكة. "العمارة العلمية في مغرب العصر الوسيط: الخزانة المرينية العتيقة في جامع تازة نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الثامن والثلاثين؛ ديسمبر ٢٠١٧. ص٥٧ – ٦٣.

مُقَدِّمَةٌ

باتت العمارة العلمية من الوجهات الحافلة بالعبر، والتي من المفيد توجه اهتمام الدارسين إليها. ولعل دراسة بنية جميع ما يمكن ترتيبه ضمن المعالم المادية، لَمَنْ شأنه الإسهام في تجاوز تاريخ لا يزال سجين الحدث. وقد كانت الخزانات العتيقة ولا تزال من حيث، إحداثها ومحتوياتها والعناية بها، بمثابة عناوين لمدى نفوذ تجارب سياسية تعاقبت على حكم المغرب. ومؤشرا لقياس درجة الاستقرار والازدهار. كذا ما كان عليه الأمر من رمزية تنافسية مادية، في مجالي البناء والتشييد ليس فقط خلال العصر الوسيط، بل على امتداد فترات لاحقة. وعليه فالخزانات العلمية ذات الامتداد في زمن المغرب، لا تخرج عن كونها شواهد، لمتغيرات طبعت بنية المجتمع والثقافة المغربية عبر التاريخ. بناء على ما يمكن التقاطه من فعل وتفاعل علمي وروحي وثقافي، كانت عليه المدن كدوائر تدافعات منذ تأسيس الدولة المغربية (الأدارسة). ويبقى من شأن توجيه العناية لمثل هذه العلامات التراثية، من خلال البحث في النصوص، ليس فقط كشف سياقات فعل البحث والباحثين، إنما أساسًا طبيعة العلاقات التي كانت تصل العلماء بالسلطة وبالمجتمع.

دراسات

والباحث في تاريخ العمارة العلمية لمدن مغرب العصر الوسيط، كما حال حاضرة تازة (مدينة مغربية منتصبة على احدى شرفات جبال الاطلس المتوسط)، تحديدا من هذه الأخيرة خزانتها العلمية المرينية، قد يجد نفسه أمام صعاب موضوعية، أساسًا منها شح الكائن من المادة المصدرية والمرجعية، وحتى في بحوث ودراسات متأخرة. والذخيرة العلمية للمدينة تظهر جلية إذا ما إعتمدنا علامات ثلاث أساسية مفسرة. منها أولاً: أصالة وقدم تعمير المجال (المر)، وعليه هناك إرث مادي علمي لايزال قائم الذات، شاهد على العصر، يهم مدارس جمعت في أدوارها بين المعرفة، استقبال وإقامة الطلبة، ثم الدرس والاجتهاد. ثانيًا شبكة واسعة من الأضرحة لعدد هام من العلماء والفقهاء، تتوزع كشهادات لاتزال منتصبة داخل مجال المدينة العتيق وخارج أسواره (تازة العليا)، كذلك في الأرياف المجاورة، بل هناك من أضرحة هؤلاء من توجد بمدينة فاس بحكم المشترك الجغرافي، وما كان من تواصل بين المدينتين عبر التاريخ. وفوق كل هذا وذاك نجد أضرحة علماء من أصول تازية، بعدد من المدن المغاربية، بكل من الجزائر، تونس وليبيا، بل بعيدا حتى في مصر.

ثالثًا وأخيرًا؛ هناك خزانة علمية برصيد هام من الوثائق، للأسف جزء هام من هذه الذخيرة كأرشيف، هو في خبر كان. خزانة اضافة لرمزية ما تعنيه ثقافيًا تجاه ماض علمي للمدينة. فإن ما تحتويه من وثائق وكتب ومخطوطات وتحف، هي بمثابة مادة خبرية على درجة عالية من الأهمية التاريخية، للنبش والاستقصاء فيما كان عليه حال العلم، وأحوال العلماء وإسهاماتهم بها. واذا كان أكثر ما تم تداوله حول الموضوع، قد اقتصر على ما هو كرونولوجي، في علاقته بالأفراد والتجارب السياسية لمغرب العصر الوسيط. فإن مساءلة محتوى وفاعلية هذه المرافق في المعرفة والتكوين والإشعاع، يبقى جديرًا بالاهتمام والالتفاتة. خاصةً وأن الخزانات العلمية بالنظر لما كانت عليه، من إقبال في الأخذ والعطاء. كانت داعمة لتحولات عرفتها بنية المجتمع المغربي، على الأقل منذ العصر الوسيط، وشاهدة على درجة النفود الفكري، الذي كانت عليه بعض مدن مغرب هذه الفترة. فأي موقع رمزي، علمي أية خلفية سياسية وقيمة تواصلية، كانت لخزانة بني مرين بالجامع الأعظم لتازة؟ ماذا عن الحمولة من الكتب والمؤلفات والوثائق والمخطوطات؟ أية اسهامات وبأية نخبة لفائدة هذه المعلمة العلمية؟

أولاً: تازة ومغرب دولة المرينيين اهتمام لا سابق له بالعمران العلمي

مغرب العصر الوسيط المريني كان من الوجهة المجالية/الترابية، يقوم على ثمانية أقاليم كبرى، فإلى جانب كل من مراكش، سجلماسة، سلا، مكناس، فاس، درعة، دكالة، كان هناك اقليم تازة.[١] وكان حكم بني مرين خلال هذه الفترة بحركية عمارة هامة، توجهت الى تشييد مدارس، لم تكن تقتصر على جهة دون أخرى، بحيث قد نجد مدرسة أو اثنتان في كل مدينة من مدن المغرب. وهذه المرافق بمهامها التربوية والعلمية، كانت توجد تحت عناية واشراف مباشر لسلطة الدولة.[٢] فقد اهتم حكام بني مرين بالعلم والعلماء على إثر ما حصل لديهم من استقرار سياسي وازدهار اقتصادي. اضافة لرغبتهم في مجاراة باقي الدول الاسلامية، من خلال تقريب العلماء والأدباء، وبناء المدارس وتحفيز الطلبة على الاكتساب، ما كان وراء عملية تأليف واسعة في جميع ميادين المعرفة كما بالنسبة للتاريخ.[٣] وقد تميز بنو مرين عن غيرهم من الأسر التي حكمت المغرب، بما خصصوه لفائدة العلم والعلماء ومعهم المؤسسات العلمية من عناية. وليس من باب الصدفة ان يؤلف على عهدهم أول تاريخ عام للبلاد وهو "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" لابن ابي زرع، "الذخيرة السنية" لمجهول، "روضة النسرين" للأمير إسماعيل ابن الاحمر، "المسند الصحيح "لابن مرزوق، "الحلل الموشية" لابن السماك العامري، كما أنه خلال هذه الفترة تم تدوين أشهر الرحلات كرحلة ابن بطوطة التاريخية.

ولهذا فنظرًا لما أولاه بنو مرين من رعاية لأمر العلم والعلماء، تأسست نهضة عامة سمحت بظهور عدد من رجالات العلم من فقهاء ومؤرخين.[٤] وعلى أساس ما بلغه حال الفقه المالكي، وتشعب الآراء والاعتماد على غير الأصول، ما استهدف الموحدون القضاء عليه نهائيًا.[٥] وإلى جانب ما بذله هؤلاء من جهد لإنهاء هذا المذهب، والقضاء على فقهاءه وأنصاره. تم الاقدام على حرق كتبه ومؤلفاته، تمهيدًا منهم لنشر دعوتهم الدينية وتثبيت موقعهم السياسي. ومن هنا ما حصل من اختلاف وتزايد في ردود الفعل. فقد اعتقد الموحدون أن المذهب المالكي فقد محتواه، بتحوله إلى بناء يقوم على شكليات بعيدة عن القرآن والسنة. وأنه تم التخلي عن الأصول باتجاه الفقهاء الى العناية بالفروع فقط، وعليه فعندما وصل بنو مرين لحكم المغرب، أعادوا للبلاد مذهبها الرسمي، بل عملوا على توطيده وتقويته.[٦]

وبمجرد انهاء التجربة السياسية الموحدية، على يد بني مرين في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي. من المدن المغربية التي استعادت موقعها الاعتباري والسياسي، كانت هي فاس من خلال إختيارها عاصمة للملك، لما للمدينة من امتداد فكري، روحي وعلمي.[٧] ويظهر أن ما تم توجيهه من عناية لفاس، كان له أثره على محيط هذه الأخيرة الجغرافي. وعليه بحكم القرب وطبيعة التواصل والارتباط التاريخي بين المدينتين، شهدت تازة في أعالي حوض ايناون، بحكم التحول السياسي الجديد للمغرب، عناية معبرة لأسباب استراتيجية.[٨] وعلى إثر

الأوراش العلمية، المعرفية، والدينية، التي شهدتها فاس من خلال انشاء عدة مدارس في محيط مسجد القرويين، توجه بنو مرين لإبراز أهمية باقي المدن الأخرى، في أفق كسب تعاطف الرعية. وعليه أقدم أبو يعقوب يوسف بتوسيع الجامع الأعظم بتازة.[٩] وفي إطار نفس العناية بالمدينة تم الإقدام على بناء دار الإمارة، المساجد، المدارس، الزوايا، الحمامات، الفنادق وغيرها، كما أقدم بنو مرين على ترميم الأسوار وتحصين البروج، فجلبوا للمدينة كل نفيس وزينوا جدران المرافق الدينية بكل بديع من الزخرفة، بل أحيانًا كانت تازة مكانا للإقامة وللملك، فمن الملوك المرينيين الذين شيدوا بها وخلدوا الآثار، هناك يوسف بن عبد الحق المريني، باني قصرالإمارة الذي لاتزال علاماته بادية لحد الآن، وهناك أبي الحسن المريني باني المدرسة الشهيرة بهذه الحاضرة.[١٠] ويتفق اغلب مؤرخي الفنون على أن العمارة المغربية، بلغت في العهد المريني أرقى درجات الإنجاز والتعبير.[١١]

وعلى إثر التحول الذي عرفه مغرب المرينيين وما ما أحيط بتازة من اهتمام لا سابق له، فقد كانت المدينة في بعض الأحيان قاعدة تملك السيادة على سائر اطراف البلاد.[١٢] والذي يسجل لتازة خلال هذه الفترة من تاريخ المغرب الوسيط، تلك العناية الفائقة التي اظهرها سلاطين فاس تجاه المدينة من خلال ما ازداد بها من عمران ديني وعلمي، جمع بين الزوايا والجوامع والمدارس، ثم دور الإقامة أو ما يعرف بالفنادق.[١٣] وكان اهتمام بني مرين بالعمارة العلمية، وفي أهم المدن المغربية كما الحال في تازة، هو بقصد تقوية المذهب المالكي، بعد ما تعرض له على يد الموحدين من تفكيك وتهجم.[١٤] وفي السياق نفسه من اسباب انتشار العلم وتعدد العلماء والفقها، هناك العناية ببناء المدارس، وإحداث الخزانات بقصد المساعدة على تلقي المعرفة، والإقدام على الاجتهاد عند الطلبة. وكان أول مَنْ جمع من ملوك بني مرين بين الشؤون العسكرية والعلمية، هو أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق.[١٥]

وفي عهد ابي الحسن المريني تم توسيع أعداد المدارس، لتشمل كل منطقة من بلاد المغرب، فتم بالمدينة تازة انشاء مدرسة للعلم.[١٦] وهي التي اسسها هذا الأخير عندما كان وليًا للعهد، ما يستشف من متن كتابة على رخامة وقفية، على باب مدرسة الأندلس بفاس، ويستشف من ما أورده ابن مرزوق صاحب المسند الصحيح، عندما قال "فأنشأ بمدينة تازة قديما مدرستها الحسنة"، ويقصد بكلمة قديما هنا ايام ولاية العهد. وكانت مدرسة تازة هاته تاسع مدرسة تم تشييدها في العصر المريني الأول، وهي من المرافق التي كانت تقوم على نظام تعليمي خاص.[١٧] يستوعب البرامج والمواد المدروسة والأساتذة والطلبة، وذلك من أجل تمييزها عن ما كان يوجد عليه التعليم، في جوامع أخرى من البلاد. ومن مواد التكوين التي كانت مدرجة، هناك الفقه والنحو والقراءات وغيرها. وكانت اقامة الطلبة بهذه المدارس، ترتبط بضرورة بلوغ سن العشرين، وحضور قراءة الحزب ومجالس المقرإ بانتظام. وعندما كان يتبين أن الطالب قد بلغ العشر سنوات، ولم يتوفق في مساره التربوي وعملية اكتسابه للمعرفة، كان يتم إخراجه منها نهائيًا.[١٨] وفي رحلته الى الحج سنة (١١٤٣هـ/١٧٣٠م)، صحبة ركب الأميرة خناتة بنت بكار زوجة المولى اسماعيل. تحدث الوزير الاسحاقي عن المدرسة التي انشأها أبو الحسن المريني بتازة، فاورد أبياتًا شعرية كانت مكتوبة على بابها. والمدرسة المعنية هنا تلك التي توجد حاليًا بمشور المدينة الشهير، والذي يتوسط النسيج العتيق بها. للاشارة فالأبيات الشعرية هاته أعيدت كتابتها على قطعة خشبية، بعد عمليات ترميم شملت هذه المعلمة المعمارية لتازة، وهي تقول:

لعمرك ما مثلي بشرق ومغرب
يفوق المباني حسن منظري الحسن
بناني لدرس العلم مبتغيا به
ثواب من الله الأمير أبو الحسن[١٩]

لقد كان لتشييد المدارس عند بني مرين، ارتباط بما هو سياسي. بحيث توزعها على عدة مدن جعل هؤلاء يوظفونها ليس فقط لفائدة مرجعيتهم الإيديولوجية، إنما أساسًا لدعم مشروعيتهم الدينية.[٢٠] هذا بالإضافة الى مقاصدهم في توفير شروط طلب العلم وايواء الطلبة. وكانت هذه المرافق التعليمية خاضعة لرقابة مقدم يعمل تحت إشراف قاضي المدينة، بعد عملية انتقائية عن الطلبة. وكان المقدم يجمع بين مهام المقتصد والمؤذن والبواب والخادم. وكانت بعض بيوت هذه المدارس يتوارثها طلبة من نفس العائلة عن طريق العدول، بل كان بإمكان الطالب بيع مفتاح البيت لزميله، كما كانت للطلبة مؤونة تعتمد على ما كان يخصص لهم من وقف.[٢١]

واسهامات بني مرين في العمران العلمي كانت بالنصيب الأوفر، فكانوا نموذجًا للعناية بفنون البناء والنقل، خاصة عن الفنون الأندلسية الأصيلة، بعد أن كان بلغ الدروة في عصر بني الأحمر. ويسجل ليعقوب المنصور المريني، أنه كان من بناة المغرب على عهد الدولة المرينية، ومن الذين توجهوا بالعناية إلى عمران تازة.[٢٢] وقد انتقلت تازة من وضع رباط زمن المرابطين، الى مدينة محصنة تم بها بناء الأسوار المحيطة، ومعها تأسيس جامع أعظم.[٢٣] إلا أنه خلال عصر بني مرين اتسعت تازة مجاليا، لتظهر كحاضرة عامرة بالمنشآت، خاصةً بعد إحداث قصر بها لأبو يعقوب يوسف، الذي كان يجاور الجامع الأعظم. وبعد إغناء المدينة بمدارس العلم على عهد ابي الحسن وابنه ابي عنان.[٢٤] وما أورده الحسن الوزان حول تازة، يمكن منه التقاط كثير من الإشارات الهامة، عندما اعترف بالمكانة العلمية للمدينة

فقال."تحتل المدينة الدرجة الثالثة في المملكة من حيث المكانة والحضارة، ففيها جامع أكبر من جامع فاس وثلاث مدارس"، مع الإشارة الى أهمية العلم، العلماء، الأثرياء والأخيار.[٢٥] وتازة لم تكن فقط إسما لمدينة بل وعاء للمعرفة، للتلقي العلمي وللعلماء على امتداد تاريخ المغرب، فقد انجبت رجالات فكر، فقه، ادب وقراءات، كانت لها مواقفها في بناء البلاد والحفاظ على استقرارها، نماءها، ووحدتها الروحية، المرتبطة بمسألة المذهب وقضية العقيدة.[٢٦] وتجدر الإشارة الى أنه في الفترة المرينية استعادت الأنشطة العلمية والثقافية اشعاعها، خاصة بالمدن آنذاك التي بلغ عددها ثلاثة عشر، منها في المناطق الجبلية المرتفعة هناك تازة.[٢٧] وقد أورد عبد الله كَنون حول هذه المدينة، أن الأنشطة العلمية بها على عهد الدولة المرينية، كانت عالية الازدهار، لما استفادت منه من ترميم ومن إنشاء لمعالم علمية ودينية جديدة.[٢٨]

ثانيًا: خزانة جامع اعظم بتازة وعشرة آلاف مجلد على عهد بني مرين

عمومًا تميزت المدن المغربية العتيقة بتعدد منشآتها، فإلى جانب المدارس والجوامع، كانت هناك الخزانات التي إلتقت فيها الوظيفة العلمية بالدينية، لدرجة أن عددًا من الدارسين يعتبرون اختطاط وإحداث هذه الأخيرة، كان من عناوين درجة التمدن، ومن شواهد الإشعاع في العلم وعند العلماء. ولعل كثرة الخزانات الموقوفة على الجوامع، لأكبر دليل على تقدم الحركة الفكرية، ومعها الإقبال على المعرفة في مغرب بني مرين، وبشكل فاق زمن الموحدين[٢٩] ولقد كانت للخزانات العلمية المرينية موقعًا متميزًا، ليس فقط بالنسبة للمجتمع بل لفائدة العلم والعلماء. مما أهلها لتكون ليس فقط رافعة وأداة للاغتناء الفكري، بل مساهمة في ما شهدته هذه الفترة من تراكمات، شملت كل الاهتمامات الأدبية والعلمية. وقد استمدت هذه الخزانات أهميتها ومركزها، لما ارتبط بها من عناية السلاطين، وما كانت تحتويه من ذخيرة، كان لها دورها في ما عرفه المغرب، من اشعاع خلال العصر الوسيط. وخزانة تازة التي كان قد تم انشاءها لحفظ كتاب "الشفا" للقاضي عياض[٣٠] لا تقل أهمية عن مثيلاتها في باقي مناطق ومدن المغرب، تلك التي لاتزال قبلة للباحثين في التراث والتاريخ، ومعها باقي العلوم الإنسانية الأخرى، كما حال القرويين بفاس، تامكروت بالجنوب، خزانة الجامع الأعظم بمكناس، زرهون، وزان، تطوان، مراكش.

وإذا كانت الخزانة المرينية لتازة، واحدة من أقدم الخزانات بالمغرب بل بالغرب الاسلامي، فقد جعلت من هذه المدينة واحدة كذلك، من مراكز المخطوطات التي لاتزال تتوجه اليها، عناية الدارسين في عدد من الاهتمامات العلمية الإنسانية، ويتوفر المغرب على (١٣) خزانة وقفية، ثلاثة منها مرينية، واحدة من هذه الاخيرة توجد بتازة. والتي تحفظ كتب تفسير، حديث، فقه، تاريخ، فلك، رياضيات، تصوف، ووثائق ورسائل موحدية، هي في مجملها للمهدي بن تومرت، نشر البعض منها في كتاب" أعزما يطلب". وجزء هام من هذه الذخيرة العلمية، والوثائق كانت تحفظها هذه الخزانة، ضاع مع الزمن لأسباب عدة ومتداخلة، منها عوامل التلاشي والتلف الناتج عن التقادم والبرودة، وقد تكون خلال مرحلة الحماية الفرنسية على المغرب وقبلها منذ بداية التوغل الاستعماري في المنطقة، تعرضت لنزيف في محتوياتها، من قبل من كان مسؤولاً عنها خوفا عليها من الضياع، أو من قبل قوات استعمارية لجعل ما كان يوجد بها، رهن إشارة الدارسين من ضباط فرنسيين، تعاقبوا على المنطقة. وقد وصف "الحجوي" الوضع الامني والاجتماعي لتازة، على أثر أحداث ما يعرف بالروكي الفقيه الزرهوني، قبل فرض الحماية على المغرب. فأورد حول تدخل الجيش غير النظامي، في اشارة منه لانعدام الانضباط في السلوك. إلى أنه حتى كتب الخزانة العلمية الحبسية/ الوقفية بالجامع الأعظم بالمدينة، لم تسلم من النهب والسلب.[٣١]

وهناك حديث على أن خزانة تازة، كانت تتوفر على حوالي عشرة آلاف مجلد في عصر بني مرين، لم يتبق منها سوى تسع مائة مخطوط، وهي ضمن وضعية تجمع بين الكتاب المبتور، المتلاشي والصالح للاستعمال العلمي، من قبل الباحثين والمهتمين.[٣٢] وما يدل هذه على تنوع هذه الخزانة من حيث غناها العلمي وتباين مضامين ذخيرتها. كونها كانت تحتوي على إسطرلاب دقيق الصنع، كان ما يزال إلى عهد قريب، وربما قد يكون ضاع خلال السنوات الأولى لإحتلال المدينة من قبل القوات الفرنسية، وهذه الآلة الفلكية دليل على ما كان عليه الأمر من عناية بهذا العلم. وما تتحدث عنه عدة مخطوطات[٣٣] منها للإشارة "ذكر آلات الإسطرلاب والأسماء الواقفة عليها"، "روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار"، "العمل في الإسطرلاب"، "اليواقيت في المنتقى من علم المواقيت".[٣٤]

ومن خلال فهرسة وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، لما يوجد بهذه الخزانة من مؤلفات ومصادر ومخطوطات، تظهر القيمة العلمية والمكانة الفكرية التي كانت توجد عليها تازة خلال فترة المرينيين، كذلك ما كان عليه العلم والعلماء من فاعلية. فإلى جانب الكتب الفقهية، كانت هناك العلوم الحقة مثل الطب، الحساب، الفلك. مع أهمية الإشارة إلى غلبة المؤلفات ذات الطابع الديني، الأمر الذي يُفسر بكون الخزانة كانت توجد بقلب الجامع الأعظم للمدينة. ويشير العلامة محمد المنوني إلى أن تازة من المدن المغربية التي كانت تشتهر علميًا وثقافيًا بالمواد الأدبية، الى جانب معارف أخرى كان يتم تلقينها بمدارسها الأصيلة.[٣٥]

والخزانة المرينية العلمية، هذه المعلمة الأثرية الى جانب الجامع الأعظم الذي يحتويها، والثريا المتفردة الصنع التي لا تبعد عنها إلا ببضعة أمتار، والمدرسة المجاورة التي تم إحداثها خلال القرن الثامن عشرالميلادي زمن محمد بن عبد الله،[٣٦] والأزقة الضيقة كتشكيل تعميري وسيط، ومع كل هذا وذاك بنايات عمرانية تاريخية مجاورة. كل هذا الأثاث المادي التاريخي هو بمثابة مركب عمراني بقيمة حضارية، ما تزال تشهد على عظمة زمن المدينة، وهذا المركب الأثري الذي يلتقي فيه الروحي بالعلمي بالفكري، تشكل فيه الخزانة العلمية واحدة من التحف والمنارات المغربية، التي تعود نشأتها إلى عهد بني مرين. الفترة الذهبية من تاريخ تازة الوسيط، حيث اتساع عمارة العلم والدين، وتزايد مهام الجامع الأعظم الذي شهد إضافات، تحول معها الى قبلة جاذبة للفكر، للعلم وللعلماء، خاصةً عندما تم إحداث خزانة الجامع بهدف حفظ الكتب والمخطوطات، ومن أجل تشجيع الدرس والتحليل. الأمر الذي إن دل على شيء إنما يدل على أن تازة، كانت توجد على ايقاع مكانة وحركة فكرية هامة، وأن جامعها الأعظم كان بمثابة جامعة القرويين في فاس.[٣٧] وكان "ذ.عبد الهادي التازي" قد أورد في إحدى إشاراته المكتوبة، صعوبة قفز الباحث في التراث، وفي التاريخ السياسي والحضاري للمغرب، عن تازة كمعالم وأعلام ومؤسسات.[٣٨]

ثالثًا: الخزانة المرينية بتازة كانت خاضعة للأسلوب الوقفي ولعملية التحبيس

يعود فضل إحداث الخزانة العلمية المرينية بتازة، للسلطان المريني فارس المتوكل، خلال القرن الثامن الهجري (٧٥٧هـ) بخلاف ما تم تداوله بعيدا عن أي تأسيس علمي دقيق، حول تجديد هذه المعلمة على أساس أنها أحدثت في الفترة الموحدية. بل هناك من يضيف في إطار الاجتهاد، على أن هذه الخزانة تم احداثها عند انتهاء ابن بطوطة من تحرير كتابه الشهير "تحفة النظار" الذي صادف السنة السابقة الذكر والواردة في أبيات شعرية كانت قد كتبت على بابها والتي تقول:

منزل بين الخزائن شامخ
قد خص من بين الإلاه بمنزل
حفظًا لمجموع الشفا انشئ عن
أمر الخليفة فارس المتوكل
في عام سبع بعد خمس إنقضت
وهي سبع في ربيع الأول[٣٩]

عن هذه الخزانة أورد هنري تيراس، إشارات هامة حول موقعها، إمتدادها ضمن المرافق الملحقة بالجامع الأعظم للمدينة من جهة الشرق، تحدث كذلك عن شكلها، سقفها الخشبي وعن بيت المواقيت الذي كان يوجد أسفل الصومعة، المكان الذي يستوعب حاليًا هذه المعلمة العلمية المرينية.[٤٠] من المفيد الإشارة إلى أن هذه الاخيرة، كانت مصدر معرفة واجتهاد لعدد هام من العلماء والفقهاء من الأهالى ومن غيرهم مثل. "لسان الدين بن الخطيب"، ابن خلدون"، "الحسن الوزان"، "الونشريسي"، "ابي القاسم الزياني" الذي كان واليا للسلطان محمد بن عبد الله على تازة كواحد من كتبته الأكفاء.[٤١] ونضيف كذلك"محمد الحسن الحجوي"، "المختار السوسي"، "محمد المنوني" وخلال العقود الأخيرة من الباحثين المغاربة والأجانب عدد كبير من قصد هذه الخزانة.

ومن جملة ما يمكن تسجيله حول وثائقها ومحفوظاتها، كونها خضعت للأسلوب الوقفي ولعملية التحبيس، ويشكل الفقه المادة العلمية الأكثر حضورًا وبنسبة حوالي ستة وثلاثين بالمائة، يليه الحديث ثم المصاحف.[٤٢] ومن الذين كان لهم فضل إغناء هذه المعلمة العلمية بالمؤلفات والمخطوطات نجد أبي فارس عبد العزيز المريني (٧٦٧-٧٧٤هـ)، عبد الحق بن سعيد المريني والذي كان آخر ملوك المرينيين وأطولهم عهدًا (٨٢٣-٨٦٩هـ) وكان يحكم البلاد تحت وصاية النفود الوطاسي وهو لايزال صغير السن. نجد كذلك عددًا من السلاطين العلويين أمثال: المولى الرشيد، محمد بن عبد الله، الخليفة علي بن عبد الله،المولى سليمان، من المؤرخين محمد بن على عجور التزاني (١٢٨٧هـ)، عن المخزن مزيان بنعمر الجمايعي المكناسي (١١٤٦هـ)، عزوز البرنوصي (١٣٤٨هـ)،عبد الله الزياني (١٣٠١هـ)، من الناسخين للكتب نجد الماحي بن عبد الله البرنوصي (١٢٢٧هـ)، من نظار الأوقاف نجد ناظر أحباس تازة (١٢٠٢هـ)، من الخطباء نجد أحمد بن محمد بن علي بن عيسى(٩٧١ هـ)، من الطلبة نجد بردلة العامري (١١٩٢هـ)، من التجار نجد الحسن بن أحمد الصنهاجي (١٠٣٤هـ)، بواسطة القضاة كالذين كانوا يقيمون بتازة (١٢٩٢هـ)، من طرف نساء كفاطمة بنت الحاج عبد القادر الجزنائي (١٢٠٠هـ)، مريم بنت خالد على أحمد الهاشمي (١٣٦٠هـ)، يطو بنت الشريف الهاشمي المراحي (١١٧٨هـ).

ومن نماذج المخطوطات التي توجد بهذه الخزانة العلمية نجد"شرح حزب البحر الشادلي"، "النصيحة الكافية لَمَنْ خصه الله بالعافية" للشيخ أحمد الزروق البرنوسي صاحب الزاوية الزروقية الشهيرة بليبيا، تحديدًا في مصراتة والتي توفي ودفن بها. وللشيخ ابن يجبش التازي مخطوط بهذه الخزانة بعنوان "إرشاد المسافر للربح الوافر"، هناك كتاب "روض القرطاس" وهو مبتور لمؤلفه ابن ابي زرع، وللقاضي عياض نجد عدة نسخ من كتاب"الشفا في التعريف بحقوق المصطفى"منها من يحتوي على إشهاد سلطاني مريني بتحبيسها على الجامع الأعظم بتازة، للبوصري نجد مؤلف "البردة" وحالته رديئة

بسبب التلاشي، للونشريسي نجد مؤلف "ايضاح المسالك في قواعد الإمام أبي عبد الله مالك."[٤٣] وتشهد المصادر التاريخية، ومراجع على قدر كبير من الأهمية العلمية، على ما بلغته تازة من إشعاع فكري زمن بني مرين، وأنه كانت لمعظم علماء هذه المدينة توجهات فقهية وصوفية.[٤٤]

خَاتِمَةٌ

الحديث عن عمارة المغرب العلمية، هذا الإرث الثقافي الوطني، هو مقاربة لهوية جماعية. وعيًا بكون الأثر المادي الذي لايزال شاهدًا، هو مساحة معارف وخبرات وأنماط حياة عابرة للزمن. وبما أن التراث هو بمثابة مستودع يختزن ما هو عبارة عن علامات مادية وشفاهية وتجارب، فهو جدير بمزيد من الاهتمام والفحص والدراسة. في أفق استثماره لبناء ثقافة حديثة لا تقوم على إقصاء السابق، بل تجعل منه شجرة ممتدة الأغصان تجاه الآن والـ نحن، وتجاه القادم من الأجيال.[٤٥] والحديث عن التراث في كل مستوياته، بقدر ما هو متشعب بقدر ما يتباين حوله الرأي. الأمر الذي يحتاج الى أهمية الإنفتاح عليه من خلال بحوث علمية أكثر عمقًا وشمولية، تقوم على البنية وليس على الحدث. خاصة وأن هذا التراث بقدر ما هو "هوياتي" مغربي، كما الحال بالنسبة للخزانة المرينية لتازة، بقدر ما هو جزء من حضارة/ ثقافة في بعدها الكوني، وحلقة من حلقات تاريخ الإنسان.[٤٦]

ويظهر أن التخصص لايزال بغير التوجه، وبالقدر الكافي لفائدة القضايا والنصوص الأثرية الماثلة ماديًا، كما الحال بالنسبة للخزانات العلمية المغربية العتيقة. هذه العمارة، المحتويات والشواهد العاكسة لطبيعة حركية المجتمع، دهنياته وعقلياته التي لاتزال ممتدة التواجد في كثير من جوانبها وصورها. ولعل من المفيد في زمن تدفق القيم، ونفود العولمة التقنية وثقافة الرقميات، انفتاح البحث العلمي على التراث المغربي، المادي منه والشفاهي. في أفق إعادة قراءة هذا الأخير، وفق رؤى تأخذ بعين الاعتبار التفاعلات الاجتماعية، وكل ما هو تماس ثقافي. فكثيرا ما تكون المعالم الأثرية على تباياتها وتوزعها، مصدر إشارات على درجة من الأهمية، ليس فقط من أجل ماض/ تاريخ مغربي، بأقل بياضات ممكنة في هذا الجانب، إنما كذلك لتحقيق تتبع تحولات مجتمع، وقائعه السياسية والسسيو ثقافية.

الهَوامِشُ

(١) حركات إبراهيم، **معالم من التاريخ الاجتماعي للمغرب على عهد بني مرين**، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، عدد ٢، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،١٩٧٧، ص٢١٥.

(٢) ابن شقرون محمد بن أحمد، **مظاهر الثقافة المغربية**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص١٤٢.

(٣) **مفاخر البربر**، مؤلف مجهول، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، طبعة أولى، ٢٠٠٥، ص٤٥-٤٦.

(٤) الفاسي محمد، **من وحي البينة**، دار الكتاب، الدار البيضاء، طبعة اولى،١٩٧٠، ص١٢.

(٥) الحسين عبد الهادي أحمد، **مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي (١١٥٩- ١١٩٨م)** تحت إشراف اللجنة المشتركة لإحياء التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الامارات العربية المتحدة، مطابع الشويخ، تطوان، ١٩٨٢، ص٢٠٠.

(٦) ابن شقرون محمد بن أحمد، مرجع سابق، ص٥١.

(٧) الطاهري أحمد صالح، **الجمالية المغربية على عهد المرينيين**، مجلة المناهل، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، عدد ٧٣– ٧٤، فبراير ٢٠٠٥، ص٦٥.

(٨) حول دخول يعقوب بن عبد الحق المريني لتازة وبقاءه بها لمدة طويلة بناءً على الخلفية الاستراتيجية للمدينة، في اطار التدافع السياسي، يمكن الرجوع لـ. أحمد القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر مَنْ حل من الأعلام بمدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣.

(٩) الطاهري أحمد صالح، نفسه، ص٦٦.

(١٠) بن منصور عبد الوهاب، **مع جلالة الملك الحسن الثاني من فاس تازة وجدة وتلمسان**، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٠، ص٦٩.

(١١) توري عبد العزيز، **العمارة المغربية مادة البناء في بعض استعمالاتها**، مجلة المناهل، عدد ٧٣– ٧٤، وزارة الثقافة، المغربية،٢٠٠٥، ص٣٢.

(١٢) التازي عبد الهادي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب**، مجلة البحث العلمي، عدد(٣٨)، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٨٨، ص٢٨

(١٣) التازي عبد الهادي، رسائل مخزنية، القسم الأول، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال، المغرب، الرباط، ١٩٧٩، ص١١.

(١٤) ابن شقرون محمد بن احمد، مرجع سابق، ص٥٢.

(١٥) الفاسي محمد، مرجع سابق، ص١٤.

(١٦) نفسه، ص١٩.

(١٧) المنوني محمد، **ورقات عن حضارة بني مرين**، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٠، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، طبعة ثالثة، ٢٠٠٠، ص٢٤٤.

(١٨) نفسه، ص٢٥٤.

(١٩) الأمراني محمد بن أحمد، **ابن بري التازي إمام القراء المغاربة**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٦، ص٧٨.

(٢٠) الشريف محمد، "**النقوش الكتابية والسلطة**"، مجلة المناهل، عدد ٧٣- ٧٤، وزارة الثقافة المغربية، الرباط، ٢٠٠٥، ص٤١٠.

(٢١) حركات إبراهيم، **المغرب عبر التاريخ**، ج٢، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء طبعة ثانية، ١٩٨٤، ص١٣٣.

(٢٢) نفسه، ص١٣٠.

(٢٣) الزياني أبو القاسم، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا**، تحقيق عبد الكريم الفلالي، طبعة ١٩٩١، دار نشر المعرفة، الرباط، ص٨٠.

(٢٤) **معلمة المغرب**، انتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، ١٩٩٢، ص٢٠٢٣.

(٢٥) الفاسي الحسن بن محمد الوزان (ليون الافريقي)، **وصف افريقيا**، الجزء الاول، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة، الرباط، ١٩٨٠، ص٢٧٦.

(٢٦) الأمراني محمد بن أحمد، مرجع سابق، ص٨٤.

(٢٧) المنوني محمد، مرجع سابق، ص٢٥٠.

(٢٨) **التراث وروح المجال**، تازة، منشورات مديرية الهندسة المعمارية، الوزارة المكلفة بالإسكان والتعمير، الرباط، منشورات عكاظ، ٢٠٠٥، ص.٢٦

(٢٩) حركات إبراهيم، **المغرب عبر التاريخ**، مرجع سابق، ص١٤٢.

(٣٠) **التراث وروح المجال**، تازة، مرجع سابق، ص٢٦.

(٣١) الخلوفي محمد الصغير، **انتحار المغرب الاقصى بيد ثواره، دواعي الاصلاح والتنظيم**، مذكرة الحجوي نموذج من الكتابات السياسية في مطلع القرن العشرين، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، طبعة ثانية، ١٩٩٥، ص٤٢.

(٣٢) العلمي عبد الرفيع، **فهرس مخطوطات الخزانة العلمية بالمسجد الأعظم لتازة**، الجزء الثاني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، ٢٠٠٢، ص٨.

(٣٣) البوخصيبي أبو بكر، **أضواء على ابن يجبش التازي**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، طبعة أولى، ١٩٧٦، ص٥٥.

(٣٤) العلمي عبد الرفيع، مرجع سابق، ص٩٤٥.

(٣٥) المنوني محمد، مرجع سابق، ص٢٥٢.

(٣٦) الكنسوسي أبي عبد الله محمد بن أحمد، **الجيش العرمرم الخماسي**، تحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، الجزء الأول، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ١٩٩٤، ص٢٦٣.

(٣٧) الأمراني محمد بن أحمد، مرجع سابق، ص٧٩.

(٣٨) **التراث وروح المجال**، تازة، منشورات مديرية الهندسة المعمارية، مرجع سابق، ص١٠.

(٣٩) نفسه، ص٢٨.

(40) Terrasse Henri, Grande Mosquée De Taza, Tome xxxlx, Les Editions d'art et D'histoire, paris, Publications des Hautes études Marocaines1944, Pp. 30-31,

(٤١) المودن عبد الرحمان، **البوادي المغربية قبل الاستعمار**، قبائل ايناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم (٢٥)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، طبعة أولى، ١٩٩٥، ص١٠٦.

(٤٢) العلمي عبد الرفيع، مرجع سابق، ص٧.

(٤٣) تم الاعتماد لاستخراج وترتيب هذه العينات ممَنْ كان لهم الفضل، في تحبيس الكتب والمؤلفات والمخطوطات على خزانة الجامع الأعظم بتازة، وهذه النماذج من عناوين المخطوطات الموجودة بهذه المعلمة المرينية، على فهرس مخطوطات الخزانة تازة، الجزء الأول والثاني، تصنيف د.عبد الرحيم العلمي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، ٢٠٠٢.

(٤٤) حول الانتاج الفكري والثقافي لتازة خلال العصرين الوسيط والحديث يمكن الرجوع لمقال "**المثقف العضوي بالمغرب الحديث**"، مجلة أمل عدد مزدوج ٢٨- ٢٩، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ٢٠٠٣.

(٤٥) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المجلة العربية للثقافة، عدد (٣٦)، **المأثور الشعبي في الوطن العربي**، عدد خاص، مارس ١٩٩٩، ص٧.

(٤٦) فيلالي زين حسن، "**كيف يمكن إحياء التراث الإسلامي**"، مجلة المصباحية، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، سايس فاس، عدد ١، مطابع البلابل، فاس، ١٩٩٥، ص١٣٧.